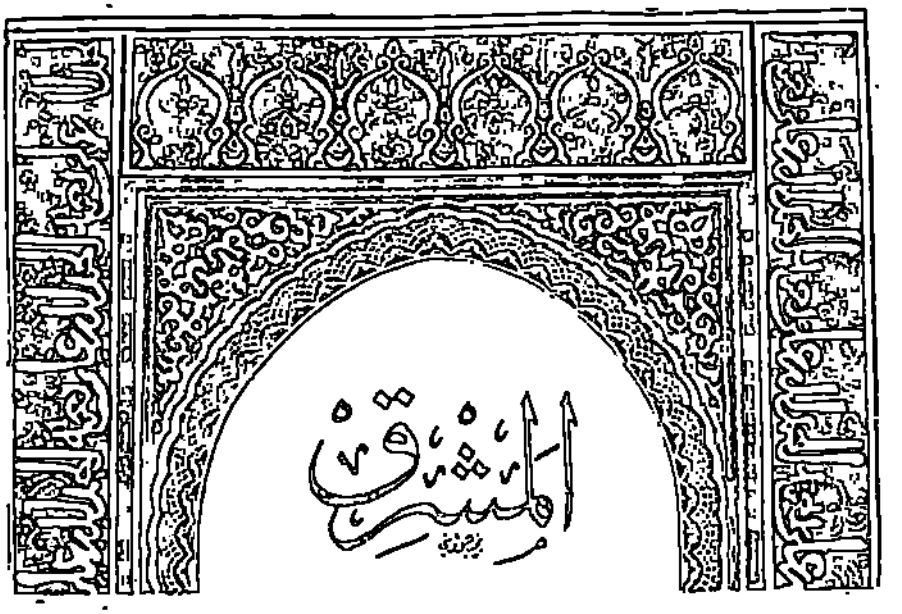

آذار ١٩٣٠

صفيّ القلب الاقدس ورسوله

نبذة في سيرة

الاب كلود دي لا كولومبيار اليسوعي

المطوَّب حديثاً

بقلم الاب شرل ايلا اليسوعيّ

لا مشاحة انَّ الآية الرسولية القائلة : « حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت النعمة » (رومية ٥ : ٢٠) ، يجوز تطبيقها نوعاً ما على وصف عصرنا هذا ايضاً . ففيه بينا يتفاقم فساد البشر ، كذلك يسمي هبيب الروح القدس ، بين الرجال والنساء ، عدد المؤمنين الذين حيسوا فدأبوا في التعويض عن الاهانات اللاحقة بالقلب الالهي ، بل لم يتردّدوا في تقدمة ذواتهم ذبيحةً للمسيح .»

هذا ما سطّره الحبر الاعظم المالك سعيدًا في رسالته العامة « *Miserentissi-*

mus Redemptor »[1] . والمعنى انه اذا كان الشرّ في ايامنا عظيماً فالخير اعظم . والفضل فيه راجع الى انتشار العبادة لقلب يسوع الاقدس . ذلك لان العناية الالهية ، على ما جاء في الرسالة المذكورة[2] « تبلغ من غاية الى غاية بالقوة وتدبّر كل شيء برفق » (حكمة ٨ : ١) فتأتي بالمعونة على قدر احتياجات الكنيسة واوفر .

ولم يكن شرقنا العزيز ليخرج عن هذه القاعدة . فان كانت الاضاليل العصرية والاوبئة الادبية قد تسرّبت اليه وانتشرت بين بنيه ، فلا شكّ ايضاً أنّ فيهم من طلائع الفضل والتقى والتفاني في سبيل الخير ما يسرّ كل قلب يغار على شرف الله . ولا حاجة الى وصف ما قام ولا يزال يقوم به من النهضات ابناء الكثلكة في هذه الامصار ، ولاسيما الشبيبة بينهم . فثمّة من المشاريع التقوية والرسولية من كل نوع ، ومن الجهاد والتضافر طلباً الى اعلاء المبادئ القويمة ودفاعاً عنها ، ما يعزّ به الدين ، ولم يشهده آباؤنا مع ما اتصفوا به من بساطة الايمان وطهر السير . واكثره يعزوه الواقفون على داخليّة الانفس الى ازدهار العبادة للقلب الاقدس فيها . وناهيك بما اصلحت وعمرت في القرى اللبنانية جمعيّات قلب يسوع للشبيبة .

فيهمّ اذن المسيحيين الشرقيين ، بل يلذّ لهم ، كشف النقاب عن اصل العبادة للقلب الالهي : كيف ، واين ، وعن يد مَن نشأت وانتشرت ؟

وفي مقدّمة الذين وكل اليهم المسيح الربّ بثها في الافئدة ، القديسة مرغريتا مريم الاكوك ، ومرشدها الطوباوي كلود دي لا كولومبيار اليسوعي ، الذي لقّبهُ ، عزّ وجلّ ، باسم « عبده الامين وصديقه الكامل . » ورفعه على المذابح البابا بيوس الحادي عشر في ١٦ حزيران من العام المنصرم . وقد أحيت كليتنا في اواسط شباط الماضي احتفالات شائقة تذكاراً لتطويبه . فنتهز الفرصة لتلخيص سيرته ومساعيه في سبيل نشر العبادة المنشودة

---

(١) *Acta ap. Sedis (1928, 1 Junii) p. 176*

(٢) *Loc. cit. pp. 165-166*

١

اساس العبادة للقلب الاقدس

في الاسفار المنزلة والتقليد

هذا وليس المراد بما سبق ان قلب يسوع كان، قبل مرغريتا مريم ودي لاكولومبيار، مجهولاً غير مكرّم بتاتاً من المسيحيين. معاذ الله! فان اصول العبادة له مثبتةٌ في الاسفار الالهية، ولها في التقليد الكاثوليكي، العريق في القدم، آثار جليلة.

فمن الانجيل نعلم ان المسيح، لاسمه السجود، هو اقنوم الهي واحد، له طبيعتان: الهية وانسانية، كاملتان غير منفصلتين وان غير ممتزجتين. فلناسوته اذاً، حيث يخصّ شخصاً الهياً، وبالتالي لقلبه، يحقّ الاكرام والتعبد الواجبان للّاهوت. واما كون قلبه خليقاً، ما بين سائر اجزاء ناسوته، باكرام خاصّ، فسببه انّ القلب، في عرف البشر من ايّ لسانٍ وصقع، يرمز الى داخلية المرء ولاسيما الى حبّه. وقد قالت الحكمة الازلية (امثال ٢٣ : ٢٦): «يا بنيّ اعطني قلبك» وقال الربّ يسوع (مت ١١ : ٢٩): «تعلّموا مني اني وديع ومتواضع القلب.» ومن الاسفار المنزلة ايضاً نعلم انّ المسيح الاله، ليس فقط في جسده، بل في روحه البشرية وقلبه، تألّم من آثامنا وفتورنا. فيتوق الى ان نعوّض له عن المرارات التي ذاقها، بمشاطرتنا لها. ففي البستان (مت ٢٦ : ٣٧-٤٠) «طفق يحزن ويكتئب» وقال لبطرس وابنَي زبدى: «تنحّي حزينة حتى الموت فامكثوا ههنا واسهروا معي» ولبطرس ايضاً: «أهكذا لم تقدروا ان تسهروا معي ساعة واحدة.» وقد سبق داود وجعل على لسانه هذه الآية (مز ٦٨ : ٢١): «قد كسر قلبي العار (عار مآثمنا) والشقاء. وانتظرتُ من يرثي فلم يكن، ومن يعزّي فلم اجد.»

ولك في الآيات المذكورة اساس العبادة للقلب الاقدس. وقد وصفها ارباب اللاهوت ومعلّمو السيرة الروحية بقولهم: انّ الغرض منها تكريم قلب يسوع من حيث هو رمزٌ حتى الى حبه لله والبشر، حبًّا قد طالما قابله الناس

بالفتور والسيّئات والاهانات . فيقتضي حبًّا يستفزّهم للتعويض والكفّارة بنوع خاصّ .

وان سألت : من ابن للربّ يسوع ان يتألّم الآن ويطلب التعزية ، وهو جالس في النعيم عن يمين الآب ؟ اجاب بيوس الحادي عشر ، في رسالته المذكورة[1] ، ما ملخصه : ان الفادي كان في اثناء آلامه يرى المستقبل ليس بذهنه الالهي فحسب بل بذهنه البشري ، الذي به كان يعاين مواجهة الذات الالهية ، وفيها ؟ إلّم نقل كلّ حقيقة على الاطلاق ، فقلّما يكون كلما تهيّئهُ معرفته من الحقائق والوقائع . فكما انّ اهانات الاشرار وتقصيرات الفاترين ، في كل زمان ومكان ، كانت وقتئذٍ حاضرة مكشوفة امام عينيه ، تؤلم قلبه الاقدس ، كذلك تعويضات الانفس الحارّة كانت ، وان مستقبلةً ، ظاهرة لديه تعزّيه وتخفّف نوعاً وطأة الكآبة عنه .

وهذا ما حدا بعض القديسين ، حتى في اوائل النصرانية ، الى التعبد لقلبه الاقدس . وهل من نكير ان امّهُ العذراء الكلية البرارة كانت ، مع الملائكة ، في مقدّمة الذين سجدوا له اذ صُوّر في احشائها الطاهرة ؟ وذاك رسوله يوحنا الحبيب ، الذي اسند رأسه الى صدره مساء العشاء السرّي ، فاستقى من قلبه حكمة المحبة الالهية ، أفيكون ارسل الكلام جزافاً اذ وصف لنا في انجيله (يو ١٩ : ٣٣–٣٧) ما « عاين » هو عند الصليب « لمّا انتهى الجند الى يسوع ورأوه قد مات فلم يكسروا ساقيه . لكنّ واحدًا من الجند فتح جنبه بحربة فخرج للوقت دمٌ وماء .» ولم يخفَ على بثير المحبة معنى هذا الجرح وقد رأى فيه تمام نبوّة زكريا (١٢ : ١٠) القائل : « سينظرون اليّ انا الذي طعنوه . » والآية في سفر النبي محكيّةٌ عن لسان الله فجعلها الانجيلي كلاماً عن يسوع قائلًا : « سينظرون الى الذي طعنوا » فيكون معناها ، على ما فهم يوحنا ، ان اليهود نظروا الى قلب يسوع الاله الذي طعنوا .

وقد طالما تنافس الآباء والقديسون ، من ترتليانوس الى برنردوس

---

(١) *Loc. cit pp.173-174*

ويوناونتورا وبرترودا وكاترين السينية وغيرهم ، فتزلوا بذكر هذا الجرح. فرأوا فيه « باب الحياة من حيث تدفقت لنا الاسرار وكل النعم »[1] المشار اليها بالدم والماء ، وانما تدفقت من حبه لنا وباستحقاقات آلامه . ومنهم من وجد في الجرح المذكور « مقرًّا للانفس تسكنه متشحةً بالحرية والسلام »[2]. وما احسن ما قال القديس بوناونتورا في هذا الصدد[3] : « انما جُرح كيما نرى من وراء الجرح المنظور جرح حبه غير المنظور . وكيف يمكن هذا الحب المتقد ان يبرز لنا بنوع اجلى من ان يسمح ان يُطعَن بالحربة ليس الجسد فحسب بل القلب بذاته . فالجرح الجسدي يُظهر الروحي. ومن لا يُشغف بهذا القلب المجروح ؟ ومن لا يبادل كذا محبّ حبَّه ؟ . . . »

على انَّه قلَّ من تكلَّم عن القلب الالهي بمثل صراحة الذين ذكرناهم ودقتهم . فلم تكن بعدُ العبادة له قد عمّت الكنيسة كلها . وعلى كل حالٍ لم تكن بعد قد عُيّنت الاعمال التقوية والتكفيرية التي شاء المخلص فأمر ان يُكرَّمهُ بها عبادُه . وعلى ما صرّح الرسول يوحنا ، في رؤيا للقديسة برترودا ، قد كان من تدابير العناية الربانية « ان تُحفظ هذه العبادة للازمنة الاخيرة ، حتى اذا ما مال العالم الى الزوال وبردت محبته فيه ، فسمع القلبَ الاقدسَ يحدّثه بنبضاته العذبة البليغة ، يضطرم بلهيبه الحيّ . »[4]

زمنٌ اعدّوا الطرق ، قُبيل القديسة مرغريتا مريم والطوباوي كلود دي لا كولومبيار ، لاذاعة رغائب القلب الالهي ونشر العبادة له ، القديسون فرنسيس سالس ، وحنّة دي شانتال ، ويوحنا اوديس (Eudes) وغيرهم . بل يُروى انَّ القديس اغناطيوس دي لويولا ، الذي عاش في القرن السادس عشر ، كان يحمل صورةً للعذراء ، كُتبت عليها الصلاة الآتية ، وقد نسبها البعض

---

(١) Augustinus, *Tract.* 120 *in Joann.*

(٢) Bernardus, *Tract. de Passione, cap.* 3.

(٣) Bonaventura, *de Vita mystica, cap.* 3.

(٤) *Insinuations de la divine Piété ou la Vie et les Révélations de S^te Gertrude, Paris, Lecoffre, tome II, p.* 27.

اليه : « يا أمّ يسوع ، امّ القلب الصالح ، امنحيني قلباً على حسب قلبك وقلب ابنك الاعزّ سيدنا يسوع المسيح . »[1]

وانما ارتفعت العبادة للقلب الالهي ، كالشمس في الظهيرة ، وشرعت تضيء باشعتها العالم اجمع ، في عهد القديسة مرغريتا مريم والطوباوي كلود دي لاكولومبيار وبسعيها.

٢

منشأ الطوباوي وفنونه

وُلد كلود في ٢ شباط ١٦٤١ في سان سانفوريان دوزون (Saint-Symphorien d'Ozon) . وهي بلدة افرنسية صغيرة تابعة لمقاطعة الايزير (Isère)

البيت الذي وُلد فيه الطوباوي

الحالية ، وكان فيها ابوه ، برتران دي لاكولومبيار ، كاتباً للعدل. وكان كلود ثالث الاولاد السبعة الذين ولدتهم لابيه امّه ، مرغريت كوينتال. منهم اثنان توفاهما الله صغيرين ، وواحد بقي في العالم . واماّ الاربعة الآخرون فوقفوا حياتهم

(١) راجع Joseph Zelle, *Prêtre, Claude de la Colombière, premier apôtre du Sacré-Cœur. Paray-le-Monial, Hiéron ou Musée Eucharistique, pp. 3-5.*

للربّ في السلك الكهنوتي او الرهباني ، مما ينطق بفضل تربية ابويهم المسيحية الصميمة ، وبعناية القلب الالهي برسوله المتيد ، منذ نعومة اظفاره ، كيما يؤهبه لمهمته المستقبلة . فالخبز الطيّب من الخميرة الصالحة .

ولما بلغ التاسعة من عمره ، انتقلت عائلته الى ليون . فتلقّن فيها اصول العلوم اولًا بمدرسة سيدة النجدة الصالحة للآباء اليسوعيين ، الى ان ترعرع فلزم معهدهم الاكبر ، اي مدرسة الثالوث الاقدس ، حيث ختم دروسه الثانوية .

٣

مراحله الرهبانية الاولى

وفي ٢٥ تشرين الاول ١٦٥٨ ، دخل الرهبانية اليسوعية في دير الابتداء بأڤينيون . ومما اتصف به منذ إذ ، على ما يشهد مترجمه الاول في مقدّمة كتاب مواعظه ، دماثة الاخلاق ، ولين العريكة ، وتمالك الطبع ، والرزانة ، ودقّة النظر ، وسداد الرأي ، وروح الصلاة .

بقي كلود في اڤينيون ثمانية اعوام . فنذر النذور الاولى في ٢٦ تشرين الاول ١٦٦٠ . وكان قد شرع منذ بضعة ايام يدرس الفلسفة . ولما فرغ منها أُقيم استاذًا للصف الخامس . فتابع تلاميذه اربع سنوات ، يرتقي معهم من صف الى آخر اعلى ، حتى ختموا تحت اشرافه اصول البيان . وفي هذا برهانٌ واضح على توقّد ذهنه ، وطول باعه في الآداب وفن التعليم .

وهي مقدرته هذه التي حملت الرؤساء على تعيينه عام ١٦٦٦ في مدرسة كليرمون الشهيرة بباريس ، معلّمًا خاصًا لابني كولبير ، وزير الملك لويس الرابع عشر . وكان في الوقت ذاته يدرس اللاهوت . وظلّ مدّة طويلة يواصل الاعتناء بالفتيَين . وكان ابوهما يجلّه ويعزّه ويثق به ، الى ان انقلب وغضب عليه لسبب طفيف . فاضطرّ الرؤساء الى ابعاده عن باريس . وانما دبّرت الامر العناية الربانية ، التي شاءت ان تجرّد قلبه من كل مجد عالميّ فيكون بتمامه للمسيح .

وكان قد سيم كاهنًا في ٦ نيسان ١٦٦٩ . فعاد في السنة التالية الى معهد الثالوث الاقدس بليون ، حيث كان تلميذًا قبل انخراطه في سلك الرهبانية .

ثمّة درّس الخطابة ثلاثة اعوام (١٦٧٠-١٦٧٣) وكان في الوقت ذاته مرشد اخوية العذراء لتلاميذه.

وفي السنة الرابعة عُيّن واعظاً في كنيسة المدرسة، حيث كان، في ايام الآحاد والاعياد، يتهافت جمهورٌ من نخبة القوم واذكاهم على استماع ارشاداته البليغة، وقد بدا بها ليس خطيباً مصقعاً فحسب، بل رسولاً مضطرماً بحب الله والانفس، حتى ذاع صيته في المدينة فكثيراً ما كانوا يطلبونه لالقاء الوعظ في سائر الكنائس. ومن اقواله في عظةٍ قرّظ بها القديس بوناونتورا، عبارة أثرها عن القديس فرنسيس سالس قال: «احبّ اليّ ان اكون ساروفياً من ان اكون ملاكاً: ان يكون علمي اخفّ وحبي لله اشدّ.»

وكأني به اذ ذاك تنبّأ عن المهمة الساروفيمية التي لا ينقضي زمن طويل الّا وتُلقى عليه، وعلى القديسة مرغريتا مريم. فكلاهما ملاكا المحبة الالهية، وعن قليل سيكل الربّ يسوع اليهما ان ينثرا في العالم درر قلبه الاقدس. فتلبث هي متوريةً في الهيكل خارّةً عند ركبتي المخلّص لتلتقطها من فمه، وينبري، هو الكاهن الرسول، لينشرها بين البشر ويضرمَ بلهيب العبادة المقدّسة شفاه غيره من المبشرين. فلم يبقَ عليه، قبل ان يستلم المهمة التي اصطفاه لها الله، الّا ان يجتاز مرحلة الاستعداد القريب لها، وهي مرحلة «الامتحان الرهباني الثالث»، وفيه خصوصاً «الرياضة الروحية الكبرى»

٤

الامتحان الرهباني الثالث والرياضة الكبرى

مما يفرضه القديس اغناطيوس على بنيه، بعد الدروس والكهنوت وقبل النذور الاخيرة الكبرى، «الامتحان الثالث» (*3e probation*). وقد دُعي ثالثاً لانه يسبقه امتحانان هما: الطالبية (*La postulance*)، والابتداء (*Le noviciat*).

والغرض من الامتحان الثالث هو تكملة اختبار الراهب وتثقيفه على حسب روح دعوته. وقد وصفه القديس اغناطيوس، في كتاب تأسياته، بكلمة وجيزة عميقة المعنى قال: هو «مدرسة عاطفية» «*Scola affectus*».

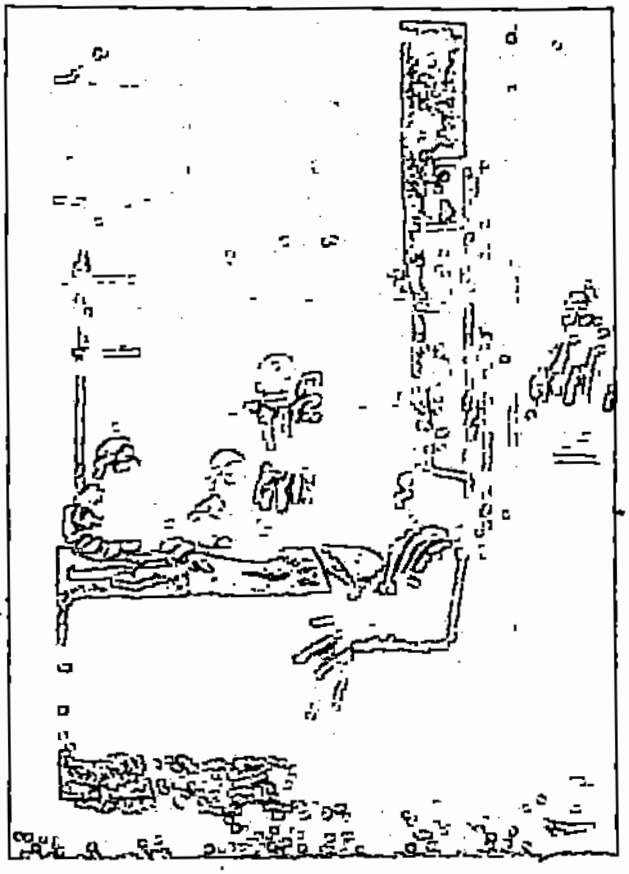

الطوباوي يعلّم ولدي كوليير

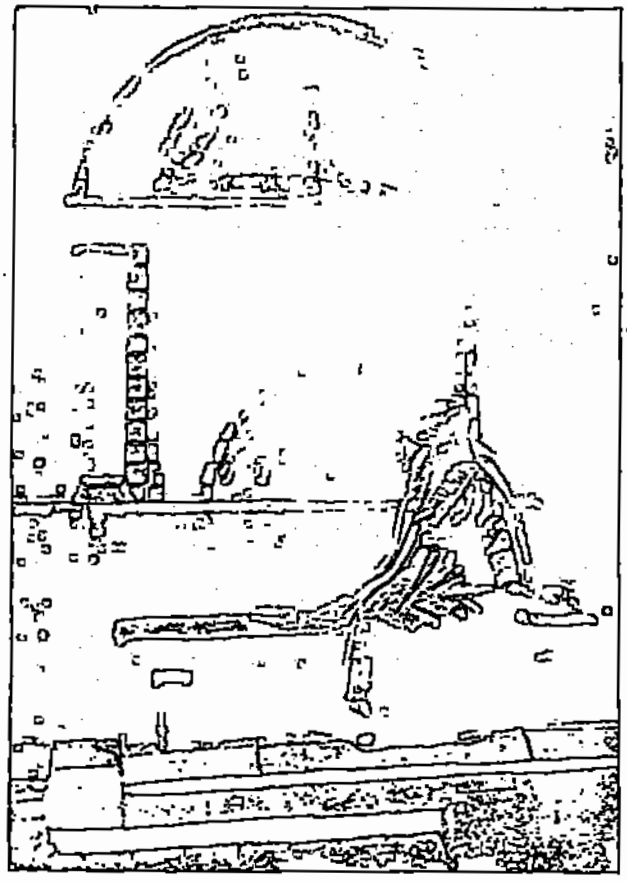

الطوباوي يُرشد القديسة مرغريتا مريم الاكوك

ولا جرم فان الدروس ، التي تستغرق في الرهبانية سنين طويلة ، قد ينشأ عنها بعض اليبوسة في الروح . فيعود الراهب بعدها ، تحت اشراف استاذ ذي خبرة طويلة في الروحيات ، الى التارين التي مارسها في سنتي الابتداء ، مما يولّد في نفسه عاطفة الحبّ الصادق لله .

ففي تموز ١٦٧٤ ، انتقل الاب كلود من معهد الثالوث الاقدس بليون الى دير القديس يوسف ، الذي كان في المدينة عينها مخصّصاً للامتحان الثالث .

ومن اهم ما ينصرف اليه الراهب في اثناء الاختبار المذكور « الرياضة الكبرى » التي تدوم ثلاثين يوماً كاملاً ، يتفرّغ فيها للاختلاء التام بالله تعالى ، ولاسيما للتأمل والصلوة العقلية خمس ساعات كل يوم ، حسب طريقة القديس اغناطيوس في كتاب رياضاته الروحية . وقد طالما امتدح الطريقة المذكورة الاحبار الرومانيون ، منهم بيوس الحادي عشر المالك سعيدًا ، كما ترى في رسالته العامة الحديثة « *Mens nostra* » المؤرّخة في ٢٠ كانون الاول ١٩٢٩ .

وقد دوّن الاب كلود في دفتر خاص ما جال في ذهنه من الخواطر ، وما الهمه الله تعالى من المقاصد في تأمّلاته . وقد طُبع مخطوطه لاول مرّة في ليون سنة ١٦٨٤ ، اي نحو عامين بعد وفاته . وهو يتضمّن ، علاوةً على رياضة الاب الكبرى ، بعض تأمّلات عقبتها ، كما ورياضة اخرى له ايضاً في لنبدرة سنة ١٦٧٧ . ولدينا نسخة منه طبعت في غرنوبل سنة ١٩٠٢[1] فالى صفحاتها نحيل القارئ عند الاقتضاء .

ولا يخفى ما لهذا الاثر من الشأن في تعريف طوباوينا ، اذ به نستطيع استطلاع داخليته ، وما المرء الّا بما في قلبه ، وبه ايضاً تتجلى الخطة التي نهجها له الروح القدس كيما يُعدّه للعمل الرسولي الخطير الذي اصطفاه له .

(١ *Retraites spirituelles du* V. Père Claude de la Colombière, *Grenoble, Imprimerie Notre-Dame, Rue des Dauphins*, 5.—XXVII, 117 pp. وقد اعيد طبعه حديثاً بسعي ادارة رسالة الصلاة في تولوز *Bureaux de l'Apostolat de la Prière, Toulouse, 9, rue Montplaisir.* c/c 593.

واول مـا يلفت نظر قارئ الكتيب نشاط المرتاض وشهـامته . قال (ص ١) :

« ابتدأتُ ، على ما يظهر لي ، برغبة صحيحة ، بنعمة الله ، ان انقاد لكل الهامات الروح القدس . فاقلع عن كل علاقة تخطئ اتردّد في ان أكون تامًّا له عزّ وجلّ . فقـد عزمتُ ان احتمل من اجله جميع ضروب البيوسة الروحية والكآبة الباطنية . »

والاستعداد الموصوف هو اول ما يطلبه من المرتاض معلّمو السيرة الروحية ولاسيما القديس اغناطيوس[1] . فلا عجب اذا كان الطوباوي استفاد كثيرًا من رياضته الكبرى .

وفعلًا انّ من يقابل ما جاء في الكتيب المذكور ، بما رواه الثقات من معاصري الطوباوي عن فضائله ، لا يشك لحظة ان رياضته الكبرى ، في دير القديس يوسف بليون ، كانت من اقوى عوامل النعمة الالهية لتقديسه .

القداسة ، ويقال لها ايضاً الكمال المسيحي ، هي حب الله الذي يصلنا به تعالى ويجعلنا ثابتين فيه ، نحيا بحياته ونتحدّها نوعاً ما من لبابه ، عملًا بقوله عزّ وجلّ (يو ١٥ : ١-٩) : « انا الكرمة وانتم الاغصـان ... أثبتوا فيّ وانا فيكم ... اثبتوا في محبتي . »

على انّ حياة المحبة هذه ، ما دمنـا على الارض ، لا تنحصر في الشعور والعاطفة ، مهما احتدمت في الجنان . فالقداسة هي حالة ثابتة او ، قلّما يكون ، تميل بالمرء الى الثبات . فلا بدّ لرائدها من الدوام . والعاطفة لا يدوم الشعور بها الّا في السماء . واما في هذه الدنيا فرائد الحياة الالهية بالمحبـة هو العمل بمشيئة الرب ، وقبل كل شيء الموت الدائم عن اميال الطبيعة السافلة ، اي اماتة الانانية .

هذا هو تعليم القديس بولس الرسول حيث يقول (كول ٣ : ١-١١) : « ان كنتم قد قمتم مع المسيح (لحياة انفسكم بالله) فابتغوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله . افطنوا لما هو فوق لا لما هو على الارض . فانكم قـد مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله . ومتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا

---

١) راجع التنبيه الخامس في رياضاته الروحية .

فانتم ايضاً تظهرون معه في المجد . فأميتوا اعضاءكم التي على الارض . . . اخلعوا الانسان العتيق مع اعماله والبسوا الانسان الجديد . . . البسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين احشاء الرحمة واللطف والتواضع . . . وفوق جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال . »

وهذه هي القاعدة التي وضعها الاب كاود لذاته في رياضته الكبرى ، وقد جرى عليها حتى آخر نسمة من حياته .

ومن ثمّ الحرب العوان التي اصلاها لميله الى المجد الباطل . قال (ص٢٨) :

« طوبى للساكين بالروح والودعاء ولاتقياء القلوب . . . وقد فهمتُ حقاً ان السماء م الذين تجرّدوا من كل شيء واقتلعوا من قلبهم حتى الاميال الفاسدة . على اني تأكدتُ اني بعيد للغاية عن هذه الحالة فقد شعرتُ . . . انّ الميل الى المجد الباطل يكاد لا يزال في قلبي بنفس الشدّة التي كانت له فيّ من ذي قبلُ ، وان غير مفاعيله اذ ذاك ، بل وان كنتُ اردّ كرّاته عليّ . »

وايضاً (ص ٣١) :

« تحققتُ ان النقيصة السائدة فيّ هي المجد الباطل . فعقدتُ نيةً ثابتةً ألّا أهمل واحدةً من الاهانات التي يمكنني تحمّلها بدون مخالفة القانون ، وان اقتبل كل التي تعرض لي من ذاتها »

ومن آفات الغيرة الرسولية في الراهب الكاهن التعلّق بالخلائق الى حدّ الافراط . فمن صديق تخشى لومه او استهزاءه فتهمل الواجب ، وان خفيفاً ، بداعي الحياء البشري ، ومن خليل تودُّه مودّةً ، قد تكون في حدّ ذاتها خاليةً من الغش ، الّا انها طبيعية ليست لمجرّد حب الله ومجده ، فتشغل في قلبك محلّاً كان الاجدر ان يكون بتمامه له وحده تعالى . وقد صدقت غزعة رجل الله على محاربة هذه النزعات . قال (ص ٢٢) يتأمل في قول الصبي يسوع (لو ٢ : ٤٠) « ينبغي لي ان اكون فيما هو لأبي » :

« هب المسكونة كلها تنتقض عليّ ، تعزأ بي او تشكّني او تلومني ، فلا بدّ لي ان اعمل كل ما يأمرني الله ، كلّ ما يلهمني لمجده الاعظم . فقد وعدتُ هذا ، واني آمل ان اني بالوعد بنعمته تعالى . والامر يقتضي سهراً عظيماً . والّا فينفسح المجال سهلا للحياء البشري الى مباغتة المرء ، ولاسيما اذا كان ضيفاً مثلي »

ومما قال في حبّ الاصدقاء (ص ١٢١—١٢٢) :

« اراني ميالاً الى الاقتداء ببساطة الله ، وذلك اوّلاً بمواطفي ، بان لا احبّ الّا الله وحده . . . والامر سهلٌ لاني اجد فيه تعالى كل ما يمكنني ان احبّ في غيره . . . واما اصدقائي فهم يمزّونني وانا أعزّهم . وانك ترى هذا وانا اشير به يا الهي ، انت وحدك الصالح ، انت وحدك الخليق ان يُحبّ . فهل يجب ان اضحّي جم لانك تبتغيني بكليتي لك ؟ واني لاضحّينّ لك هذه الضحية وهي تمرّ عليّ اكثر من تلك التي قدّمتها لك يوم تركت ابي وامي . فها إني ارفع اليك هذه الذبيحة ، وارفعها عن طيبة خاطر ، حيث حرّمت عليّ ان اجعل لابي خليقة حصّة من صداقتي لك . . . »

« ومن انجع الوسائط لتحرير القلب من كل شيء ، تغيير المسكن والوظيفة غالباً . فان الانسان يتعلّق ، بدون ما يشعر ، بمكانٍ قد تأصّل فيه ، كما يبان من الالم الذي يعانيه عند الفراق . فكأنه يموتُ نوعاً اذا ما انتزح عن ديارٍ كان قد اضحى فيها معروفاً وله فيها بعض المألوف . ومما يمكّنني دائماً ان احتمل الفراق هذا بدون ما اضطراب ، الاعتبار أنّ الله يرافقني في كل موضع ، وانني ، حيثما اتوجّه ، اجد الرب عينه . »

ولم يكن الطوباوي ليجهل حَرَج الطريق الذي خطّه لذاته . فهو عالم بضعفه يُقرّ انه احياناً « بينما يخال نفسه في مأمن من خيل الانانية فاذا به يراها تباغته وتهزأ به » (ص ١١١) . واذا استثنينا العذراء مريم فايّ قديس سلم من مباغتات الطبيعة الضعيفة الى حد ألّا تفاتله ، عن غير تحرّز تامّ منه ، هفوة بل هفوات[1] .

ومن انجع الوسائط التي تذرّع بها رجل الله ، ابتغاء للثبات في مقاصده ، نذرٌ خاص وعد الله به ان يحفظ كل قوانين رهبانيته . ومعلوم انها في حدّ ذاتها ، وبقطع النظر عمّا لبعضها من الصلة الجوهرية بالنذور الرهبانية او بالشرائع الالهية والكنسية ، لا تُلزم تحت طائلة الخطيئة .

ولدينا صورة عهده هذا مثبتةً في كتب « الرياضة الكبرى » (ص ٣٤—٤٦) . وناهيك بما ثمّة من الاساليب المنظّمة لقمع الاميال المنحرفة فتكاد لا يبقى لها منفذ ، ومن طرق تجريد النفس وصلبها عن العالم كيما تتفرّغ لحبّ خالقها وخدمته ، مما يذكّر بقول احد معلّمي السيرة الروحية ومعناه : انّ الشهيد لا يلبث ان ينتهي عذابه بالموت . واما الراهب الحقيقي فاستشهاده متواصل يدوم طيلة حياته .

---

١) راجع المجمع المسكوني الفريدنتيني ، الجلسة السادسة ، القانون ٢٣

وقال المؤلف الاول لترجمة الاب كلود في مقدّمة مجموعة مواعظه : « لم يشعر عبدالله بعد نذره انه في ضيق اشدّ من ذي قبل[1] . لم يعتره قطّ وسواس في شأن السنن الشديدة التي كان قد وضعها لنفسه . ويشهد ايضاً الذين عاشوا معه وعلموا بعد وفاته ما كان قد نذر ، انهم لم يروه ابدًا يُخلف بوعده حتى في الصغائر .»

٥

مرشد الضبسة مرغريتا مريم

ان من يعتبر مناقب الاب كلود وفضائله ، وما تقلّد الى الآن من المهامّ وما احرز فيها من النجاح ، قد يخال انه لا يلبث ان يُعيَّن لمركز رفيع في رهبانيته ، فيُرسل مثلًا الى احدى العواصم ، حيث يكون كالسراج على المنارة ، ليستضيء به وجوه القوم ونخبتهم .

على انّ « افكار العناية الالهية ليست افكارنا وطرقها ليست طرقنا وكما علت السماوات عن الارض كذلك طرق الربّ علت عن طرقنا وافكاره عن افكارنا » (اشعيا ٥٥ : ٨-٩) . فما فرغ الطوباوي من امتحانه الثالث ولفظ في ٢ شباط ١٦٧٥ ، النذور الرهبانية الاخيرة الاحتفالية ، إلّا بُعث الى باراي لي مونيال (*Paray-le-Monial*) ، وهي من اصغر مدن فرنسة . فأقيم رئيساً فيها على احقر دير من اقليمه . ولا غرو فثمّة كانت تنتظره العناية الربّانية ، وفي نظرها الالهي لم يكن امتحانه الثالث ورياضته الكبرى الّا استعدادًا قريباً للمهامّ التي كان عتيدًا ان يقوم بها من قِبَلها في تلك الديار . ثمّة كان ينتظره قلب يسوع ، ثمّة كانت القديسة مرغريتا مريم تنتظره من قبل ان تعرفه فلا يتمّ كلاهما ان يكونا « شاهدَي الربّ » لاذاعة آيات حبه «والمنارتين القائمتين امامه » ليُضيئا المسكونة (رؤيا ١١ : ٤) .

ولما وصلَ الطوباوي الى باراي كانت فيها القديسة مرغريتا مريم ، بدير زيارة العذراء الذي دخلته منذ اربع سنوات ، تجتاز ازمة روحية شديدة . فمن

١) راجع رياضته المذكورة ، ص ١٢٧

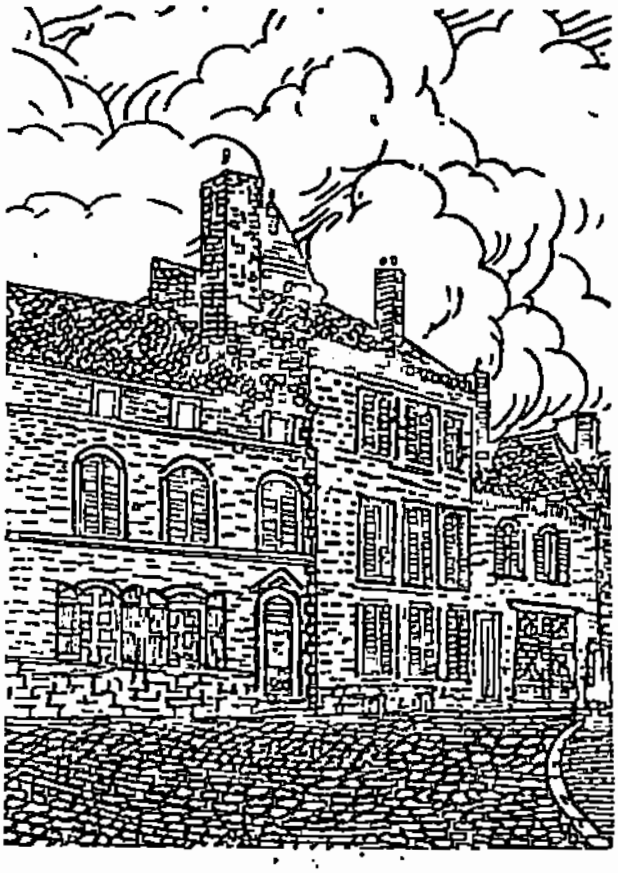

دير الآباء اليسوعيين في باراي في عهد رئاسة الطوباوي

جهةٍ كان يسوع قد ظهر لها سرارًا بل ما زال يواصل محادثاته لها عن قلبه الاقدس . ومن جهة أخرى كانت اخواتها الراهبات يهزأن بتعبدها ويعدُدْنه ضرباً من البدع ، ومرشد اعترافها ورئيستها يرتابان في امرها ويتردّدان فيه ، أيعزوانه الى الروح الصالح ام الشرّير . ومن ثمَّ ما كانت تعانيه من الغصص والحصر تلك الراهبة الورعة الخاضعة ، حيث تشعر بنفسها ، كأنها اضحت تتنازعها الطاعة المقدسة من ناحية ، وربُّ الطاعة يسوعُ من ناحية اخرى.

قالت هي في كتاب سيرتها ، الذي دوّنته بامر رؤسائها :

« بينا انا في الاكدار والمخاوف . . . أمرتُ ان احدّث بعض اشخاص من ذوي العلم . على انهم لم يسكتوا روعي في شأن خطتي بل زادوا ايضاً في اكداري . الى ان أرسل هنا سيدنا يسوع المسيح الاب دي لاكولومبيار . . . وكان ربي وسيدي ، بعد تكريمي له بشطر من الزمن ، قد وعدني ان يبعث اليّ عبدًا له ، يرغب عزّ وجل ان اكشف له ، على حسب الفهم الذي يعطيني ، كلّ ما سلمني من كنوز قلبه واسراره ، لانه يهمّه اليّ كيما يُثبّتني في منهجه ، ويمنّ عليه بنعم عظيمة من قلبه الاقدس ، الذي يحطها علينا مدرارًا في محادثاتنا .

« ولما جاء هنا هذا الرجل البار ، بينا كان يخطب في جماعة الدير ، سمعتُ باطنًا هذه الكلمات : « هوذا الذي ارسله اليك . » وقد تحققت الامر في اعترافي الاول له بالازمنة الاربعة (١ . فانه ، والمْ نكن من قبل تراثينا ولا تحادثنا ، تبقّاني طويلًا وكلّمني كأنه فهم كلّ ما كان يجري فيّ . على اني لم اشأ هذه المرّة ان ابوح له بشيء . واذ رآني همست بالاعتراف سألني هل استنسب ان يعود يواجهني . . . فاجبته اني . . فاطلة ما تأمرني به الطاعة . . . »

« وبعد زمن يسير رجع وبالرغم مني تيقّني ان الله يريد ان اكلّمه ، شعرتُ بكره هائل حين آن وقت المواجهة . واول ما بثثتُ له هذا الكره . فاجابني معربًا عن سروره لكونه جعل لي فرصةً ان اقدّم ذبيحة لله . واذ ذاك بدون ما مشقّة ولا كلف فتحت له قلبي وكشفت له عن سرائر نفسي خيرها وشرّها . فطمأنني كثيرًا مؤكدًا لي انه لا بأس عليّ من ان انقاد لذاك الروح ، ولاسيما لانه لا يخرجني عن الطاعة . . . واذ ذكرتُ له شيئًا من ضروب التودد التي يبديها لي الربُّ حبيب نفسي ، قال : انّ لك في هذا كله ، ما يدفعك شديدًا الى احتقار ذاتك ، ولي ما يحملني على الاعجاب بمراحم الله العظيمة نحوك .

« على انّ الجودة الالهية أبت ان احظى بتعزية واحدة ، ما لم اتكلّف من اجلها اهانات عديدة . وقد جلبت عليّ منها كثيرًا المواجهة الموصوفة ، بل اقتضى الامر ان يتحمّل الاب عبئه عناءً كبيرًا من اجلي ، حيث كانوا يقولون اني اريدُ ان اضلّله بنروري كما اغويتُ غيره . . . على انه لم يمتنع من مواصلتي بعونه طيلة اقامته القصيرة في هذه المدينة كما ودائمًا . . . ومع ذلك لم يألُ جهدًا في الوضع من قدري وتذليلي . . . » (٢

(للبحث صلة)

---

١) من مراسيم الحق القانوني ان يُعيّن للراهبات في صوم الازمنة الاربعة مرشد للاعتراف ، غير الاعتيادي . فيدعى مرشدًا خارق العادة . وجذه الصفة اتى الطوباوي الى دير الزيارة .

٢) *Vie et Œuvres de la* Bienheureuse Marguerite-Marie Alacoque, *Paris, Poussielgue, tome II. pp.* 345-347.